مجلة رفوف – مخبر المخطوطات – جامعة أدرار – الجزائر ـــــــــــــــــ المجلد: 14 / العـدد:02 (نوفمبر 2026) ص 458– 470
ISSN: 2335-1381 EISSN: 2602-5949 Legal Deposit: 2013-6352

بلاغة الفهم والإفهام عند الجاحظ بين حمادي صمود ومحمد العمري
(دراسة في المفهوم والنسق البلاغي)

The Rhetoric of Understanding and Communication in al-Jāḥiẓ: Between Hammadi Samoud and
(A Study of the Concept and the Rhetorical System)

فضلي لعجال
Fadli laadjel
جامعة عمار ثليجي – الأغواط (الجزائر)، l.fadli@lagh-univ.dz

تاريخ الاستلام: 2026/07/12	تاريخ القبول: 2026/10/17	تاريخ النشر: 2026/11/25

الملخص:
تتناول هذه الدراسة بلاغة الفهم والإفهام عند الجاحظ من خلال قراءة مقارنة لمقاربتي حمادي صمود والعمري، للكشف عن طبيعة المشروع البلاغي الجاحظي وأسس بنائه. وتبحث في تطور مفهوم البيان من الدلالة العامة إلى البلاغة والخطابة، وتوضح مكانة الوظيفة الإفهامية والوظيفة الإقناعية في تصور الجاحظ، كما تبرز اختلاف المنهجين البنيوي والتداولي في تفسير نسقه البلاغي. وانتهت الدراسة إلى أن مشروع الجاحظ يمثل نواة متقدمة للبلاغة العربية، وأن اختلاف القراءتين يعكس تنوع المناهج الحديثة أكثر مما يعكس اختلافا في جوهر النص الجاحظي.
كلمات مفتاحية: الجاحظ، البيان، الفهم والإفهام، البلاغة العربية، الخطابة.

Abstract:
This study examines Al-Jāḥiẓ's rhetoric of understanding and communication through a comparative reading of the approaches of Hammadi Samoud and Al-Omari, aiming to reveal the nature and foundations of Al-Jāḥiẓ's rhetorical project. It investigates the development of the concept of *bayān* from general signification to rhetoric and oratory, clarifies the informative and persuasive functions in Al-Jāḥiẓ's thought, and highlights the differences between the structural and pragmatic approaches in interpreting his rhetorical system. The study concludes that Al-Jāḥiẓ's project constitutes an advanced foundation for Arabic rhetoric and that the divergence between the two readings primarily reflects methodological diversity rather than differences in understanding Al-Jāḥiẓ's original texts.
Keywords: Al-Jāḥiẓ; Bayān; Understanding and Communication; Arabic Rhetoric; Oratory.

المؤلف المرسل: فضلي لعجال، **الإيميل**: l.fadli@lagh-univ.dz

1.مقدمة:

يُعدُّ الجاحظ من أوّل المؤسسين للفكر البلاغي العربي، وقد شكَّلت مؤلفاته – وفي مقدمتها – البيان والتبيين والحيوان والرسائل، منطلقا لتصورات أسهمت في بناء البلاغة العربية وتوجيه مسارها، ولم تكن بلاغته نظرية مكتملة بقدر ما كانت مشروعا معرفيا تتقاطع فيه قضايا اللغة والبيان والخطابة والتواصل، وتتداخل فيه الرؤية اللغوية بالأبعاد الثقافية والمعرفية، حتى صارت محطَّ عناية الباحثين، وفي مقدمتهم حمادي صمود الذي كشف عن النسق البلاغي الكامن في مؤلفات الجاحظ، والعمري الذي قرأ مشروعه من منظور تداولي وخطابي، مبرزا مركزية الإقناع ووظيفة الخطابة، وتتبع أهمية هذا الموضوع من إظهار مرحلة تأسيسية في تاريخ البلاغة العربية، والكشف عن تطور مفهوم البيان، وشرح أوجه الاتفاق والاختلاف بين أبرز القراءات الحديثة لتراث الجاحظ، والشرح لتطور النظرية البلاغية العربية وصلتها بالاتجاهات اللسانية والبلاغية الحديثة.

وتمثُّل إشكالية الدراسة في بيان طبيعة خاصّةٍ لبلاغة الفهم والإفهام عند الجاحظ، والكشف عن أسسها، وبيان كيفية مقاربتها في قراءتي حمادي صمود والعمري، ومدى اختلافهما في تحديد وظيفة البلاغة وحدود المشروع البياني، وتهدف الدراسة إلى شرح معالم النسق البلاغي عند الجاحظ، وتطور مفهوم البيان، والكشف عن مرتكزات قراءة حمادي صمود والعمري، مع بيان أوجه الاتفاق والافتراق بينهما، واستجلاء ما أضافته هاتان المقاربتان إلى دراسة البلاغة العربية، أما منهج البحث فكان وصفيا تحليليا مقارنا، قائما على وصف التصورات البلاغية عند الجاحظ كما عرضها الباحثان، للكشف عن مواطن الالتقاء والاختلاف، ثمّ الوصول إلى نتائج تسهم في فهم أوضح لمشروعه البلاغي في ضوء الدراسات الحديثة.

2.المبحث الأول: بلاغة الجاحظ عند حمادي صمود:

1.2 في المنهج والتأليف:

تغلُب على كتابات الجاحظ نزعة إلى الجمع والتّقصي وتأليف المتنافر، هي تجسيد لتصور ثقافي ونظريةٌ في المعرفة، لم تخضع في الغالب لمنهجية واضحة وبناءٍ محكم في حدود مفهومنا للمنهج اليوم (حمادي، 1981، صفحة 143) وقد خلق ذلك مفارقة بين الإرادة المنهجية والوعي النظري العام، اللَّذين عبَّر الجاحظ عنهما بطرق مختلفة في أكثر من مناسبة، وبين الإنجاز الفعلي حيث لا تُلَبَّي الرغبة ويطغى الحال على المراد (حمادي، 1981، صفحة 144) وتتنزل جملة آثار الجاحظ باعتبار صلتها بالبلاغة في ثلاث مراتب متصاعدة:

- **مجموعة الرسائل والبخلاء:**

تبدو المادة البلاغية في هذه المؤلفات مقارنة بما في البيان قليلة صعبة المنال، لا سبيل إليها إلا القراءة المتأنية، ويبقى بروزها في الغالب رهين منهج المؤلف إلا أنها مفيدة من عدة جوانب، فهي مادة لا يَستغني عنها من يروم دراسة التفكير البلاغي عند الجاحظ، ناهيك أنه لم يُثبت الكثير منها في البيان والتبيين، زد على ذلك أنّ توزُّعها على جل مظاهر تفكيره في الموضوع يُعين على تفصيل ما جاء في غيرها مجملا وتوضيح ما كان مقتضبا. (حمادي، 1981، صفحة 146)

- **كتاب الحيوان:**

كان موضوعه الحيوان، لكن البحث اللغوي البلاغيّ منه غير قليل، بل إنّ جلّ تصوراته اللغوية العامة وقاعدة تفكيره البلاغي أدرجت في هذا الكتاب، وهذه المادة تدور إجمالا حول ثلاثة محاور، أولها قضايا لغوية عامة، عميقة الصلة بمقاييسه الأسلوبية وآرائه البلاغية والنقدية. منها رأيه في نشأة اللغة وسبل توسعها وأهمية العامل الزمني والاجتماعي في توطيد العلاقة بين الأشياء والكلمات، ومحورٌ لنظريته في الكلام واللغة، ومحور لخصائص الخطاب وجملة المقاييس الأسلوبية والنقدية التي تجعل الكلام بيّنا وبليغا، وهذا المحور استغلته المراجع وكثيرا ما اقتصرت عليه لأنه أوضحها وأشدها اتصالا بالمعطيات التطبيقية العلمية، ففيه أكّد الجاحظ على أهمية البنية في الأدب باعتبارها الخاصية النوعية الأساسية في ممارسة اللغة ممارسة فنية، كما اهتم بالمظاهر العلمية التي تجعل الخطاب الأدبي مُخرَجا غير مُخرَجِ العادة فتحدث عن الفصاحة والبيان وأولى الصورة الفنية وصنوف المجازات عناية خاصة. (حمادي، 1981، الصفحات 150–152)

- **البيان والتبيين:**

وفي هذا الكتاب تساءل حمادي صمود عن إمكانية إعادة تنظيم هذه المادة وربط حبل الأسباب بينها وبين ما ورد في مؤلفاته الأخرى في نفس المشغل، لتصوُّر الهيكل العام الذي تتدرج فيه النظرية البلاغية للجاحظ. (حمادي، 1981، صفحة 155) وانطلق الباحث في هذا من أنّ مفهوم البيان عند الجاحظ يتدرج من مفهوم العلامة مطلقا، إلى مفهوم العلامة اللغوية بمستوييها العادي والأدبي. (حمادي، 1981، صفحة 157)

2.2 في أنواع الدلالات على المعاني عند الجاحظ:

إنّ مبتدأ تفكير الجاحظ في القضية يتأسس على نظرة دينية رمزية تتنزل بموجبها المخلوقات منزلة الدوال لمدلول سرمديٍّ أسمى، يُهتدى إليه بالتّعقل وتأويل الرمز وهو حكمة العالم والكون. وجزء من هذه المخلوقات فقط من تكون دلالةً ومُستدلا معا وهو الإنسان. ثم يتدرّج الجاحظ من التفكير العام المجرد إلى تفكير اجتماعي، يتحسس

به مقتضيات المنزلة الإنسانية حيث ارتبط البيان بغاية التعبير عن خفايا الحاجات والمعاني وهتك الحجاب دونها، ليتم للناس مرادهم واجتماعهم ويدركوا حكمة الخلق. فجاءت الدلالات أنواعا ومراتب. أما الأنواع فهي من جهة أن الإنسان يبين عن مراده بوسائل شتى منها اللغة. وأما المراتب فهي مرتبطة بافتراق المخلوقات في مناهج الدلالة من جهة، والأطراف التي يتم بينها التواصل والبيان من جهة ثانية. والأنواع مضبوطة في خمسة هي: اللفظ والإشارة والعقد والخط ثم الحال، ومنزلة النوع الخامس دون الباقي من الأنواع لسببين، أولهما أن لا وجود لوساطة بين المستدِل ودلالته تساعد على الاستبيان، وثانيهما أن البيان يتم بين الأجناس المتشابهة بعلامات ترفع الجهد في استكناه المعاني. (حمادي، 1981، الصفحات 158–160)

فالبيان بهذا المعنى العام ليس رهين جنس الدليل ونوع العلامة، والمهم هو الانتقال من حال المعنى المختزن إلى حال تفضي بالمستدِل إلى حقيقتها فيتمثلها بفكره. وبهذا يكون البيان في هذه المرحلة خاليا من البعد الفني والبلاغي، إلا أن فكرة الفهم والإفهام التي تجسدها تبقى أساسا في كل مستويات التعبير وضابطا لها سواء كان التعبير عاديا أو فنيا. (حمادي، 1981، الصفحات 161–162)

كان الجاحظ واعيا بأن اللغة ليست إلا وسيلة مثل غيرها من وسائل إيصال المعنى، فكان في كتابه انتقال بين العلامات مطلقا إلى العلامات اللغوية، ونجد الباحث يقف على ذلك فيبدأ بمرحلة يكونُ فيها البيان قدرةً للإنسان على توظيف اللغة اجتماعيا، لتحقيق التواصل بينه وبين جنسه والإبانة عن حاجته، ثمّ مرحلة تكون فيها كلمة (البيان) في حوار لغوي ذي طابع معياري تقييمي، تصبح بمقتضاه وظيفةُ البيان في حاجة إلى مستوى لغوي تتوفر فيه خصائص نوعية تخرج بالكلام إلى الفنية والبلاغة، ثمّ مرحلة ينفصل فيها البيان عن وسائل التعبير مطلقا، وعن معنى اللغة التواصلية المجردة ليصبح بمعنى البلاغة. (حمادي، 1981، الصفحات 162–166)

وبهذا يلاحظ حمادي صمود الانتقال التدريجي للجاحظ من تحقق الفهم والإفهام إلى الوعي بأهمية الوسائل ومسالك الأداء، ولئن كان البيان في المرحلتين الأولى والثانية الكشف عن المعنى من أي طريق فهو في الباقي كيفية في بلوغ تلك الغاية، وهيأة مخصوصة يكون عليها الخطاب، تجعله معطى حضوريا قائما بذاته بينما كان في الفعل اللغوي العادي غائبا مختفيا وراء ما يؤديه. وسيكون التركيز على المرحلة الرابعة مُسطِّرا لنهج البلاغة وضابطا لحقل اهتمامها، باعتبارها علما بطرق القول وأفانين التعبير تقوم عليه شرعية وجودها في شجرة علوم اللسان. (حمادي، 1981، صفحة 169)

3.2 في مفهوم البلاغة:

أتى حد البلاغة في البيان والتبين في ثمانية وعشرين موضعا، منها ما جاء جوابا عن سؤال ومنها ما جاء أقرب إلى الحكم النقدي الفردي منه إلى الحد، وليس في هذه الحدود ما نسبه الجاحظ لنفسه، ثم إن أصولها مختلفة

فبعضها للعرب وبعضها للفرس والروم والهنود واليونان، لهذا جاءت تلك الحدود مفصولة عن سياق تأسيسها. (حمادي، 1981، الصفحات 253-254)

إن أول إشكال تطرحه هذه الحدود هو خروجها أحيانا عن حيز النص وتعلقها أحيانا بمسائل بعيدة عن المشغل البلاغي، إن تصورنا البلاغة بحثا في الوسائل اللغوية والفنية، والتي يعتبرها المُخاطِب لصوغ نصه صياغة تجلب الانتباه بذاتها ولذاتها وتخرج عن المألوف، بُغية إحداث أثر في النفس لا يحدث باللغة التواصلية المعتادة. فبعض التعريفات تقتصر على تحقيق وظيفة الفهم والإفهام ولا تشير إلى خصائص النص، ولا تلح على أكثر من توفر طرفي الخطاب، وبعضها الآخر يربط بلاغة الكلام بالسلامة من عيوب النطق، وواضح أنّه لا يعني التلفظ لأنه لا يؤثر على جوهر النص، وبعضها الآخر غير واضح إذ تُعرِّف البلاغة بتحديدات خطابية. (حمادي، 1981، الصفحات 256-258)

وبتنزيل هذه التعريفات في سياق مجهوده البلاغي العام يتضح لنا أن الجاحظ تحدث عن خمسة أقسام رئيسة هي عين الأقسام التي عُرفت في الخطابة اليونانية، وإن كانت مبثوثة دون وَعي بها أو تقسيم لها. وليس التقريب بين وجهة اليونان في التقسيم ووجهة المؤلف دليلا على الأخذ والتأثر، لأن الاعتماد على أشكالٍ أدبية متقاربة يمكن أن يوصِل إلى نفس النتائج. وهذه الأقسام هي:

- الحجج وإظهار الاقتناع بها.
- تقسيم أجزاء الخطبة.
- الخصائص التعبيرية المناسبة لتأدية الغرض.
- النطق واختيار الألفاظ حسب الزمان والمكان.
- التذكر وقوة الحافظة. (حمادي، 1981، صفحة 259)

ويستطيع الدارس أن يوفر من مؤلفات الجاحظ مادة تستجيب لمقتضيات كل قسم، فيدخل في القسم الخامس مثلا قول الجاحظ "أن يكون ذَكورا لأول خطبته وللّذي بنى عليه أمره" (الجاحظ، 1998، صفحة 215) حتى لا يتلجلج في قوله، ويدخلُ باب الحججِ في أحد تعريفات الجاحظ للبلاغة حينما يقول أنها "البصر بالحجة والمعرفة بمواضع الفرصة" (الجاحظ، 1998، صفحة 88)

مرويات الجاحظ لم تكن مجرد جمع لمعلومات بلاغية وإنما اختار ما يتوافق مع تصوره البلاغي، ونتأكد من ذلك حينما نقارن بين ما حوته هذه الحدود والتعريفات للبلاغة وبين المعايير التي التزم بها في تدوين كتابه. ثم إن الجاحظ قد تطرق إلى وجوه لم تشر إليها تلك التعريفات أو لم توفها حقها. وهذا بسبب توسع الروافد التي استقى

منها معايير بلاغة النص من قرآن وشعر وأرجاز ومنثور. وبهذا تكون مقاييس الجاحظ مستمدة من حصيلة الأنواع الأدبية في الثقافة العربية الإسلامية رغم بعض النقول عن اليونان والفرس. (حمادي، 1981، الصفحات 261–263)

4.2 في اللفظ:

إن المبدأ النظري العام الشامل لشتات آراء الجاحظ في اللفظ هو "الاختيار"، ويكون الاختيار حدّا فاصلا بين الممارسة اللغوية العادية والممارسة اللغوية الفنية. والاختيار هو ما يحقق هدف الخطابية أو الفنية التي ينشدها الجاحظ، ولهذا الاختيار شرطان:

- أن ينفصم الأدب عن الأسس الأخلاقية، حيث يتحوّل اهتمام المتكلم عن علاقة كلامه بما هو خارج عنه إلى الكلام ذاته وطريقة نسجه.
- الاقتناع بأنّ الأثر الفنيّ الجيد يحتاج إلى الحذر من المبالغة والتحرز من التكلف وطمس الطبع. (حمادي، 1981، الصفحات 263–265)

ثم إن لهذا الاختيار إجراءات عملية تجسده هي:

أ- **فصاحة اللفظ:** ليكتمل ثالوث البيان (البلاغة والخطابة والفصاحة)، والفصاحة عنده تنطلق من بنية اللفظ الصوتية وانسجام الحروف المركبة وتآلفها. (حمادي، 1981، الصفحات 266–267) ويمكن أن تكون الفصاحة في تفردها بخصائص ذاتية، حيث لا يكون جمالها رهين ارتباطها بعناصر أخرى في السياق، وهذا يعطي جمالية كلية لا تحصل إلا بتجاور الأجزاء الجميلة، حيث يكون السياق وحده عاجزا عن توليده ما لم يستند إلى خصائص المفردة. (حمادي، 1981، صفحة 267)

ب- **علاقة البنية الصوتية للفظ بمعنى اللفظ:** لم يتفق الدارسون في هذه المسألة لأن الجاحظ يطلع عليهم فيها كل مرة برأي أو شاهد مُستعصٍ، أو لأن بعضهم لم يُحط بالمسالة ولم يناقشها بما يكفي، فكان فيهم من استقر على أن الجاحظ يميل إلى اللفظ والانتصار له على حساب المعنى. (حمادي، 1981، صفحة 272) لأن البلاغة في الأصل علم بكيفيّات التعبير التي تحقق للقول أكبر حظوظ التأثير، ولذلك تهتم بالكيفية أكثر من المضمون. وفوقه نجد الجاحظ صريحا في التعلق بالصياغة، ومن ذلك كلامه عن صعوبة ترجمة الشعر لأنه "متى حُوِّل تقطّع نظمه، وبطل وزنه، وذهب حسنه، وسقط موضع التعجب" (الجاحظ، 1965، صفحة 75)

وقد ساهم الجاحظ بقسط وافر في تثبيت ثنائية اللفظ والمعنى في البلاغة العربية، وإقرار الفصل بين الشكل والمضمون بطريقة سيقتفيها البلاغيون بعده، واعتبر الأدب قائما على الزينة التي نضيفها إلى المعنى لا على المعنى (حمادي، 1981، صفحة 273) بل إن قوله "الأسماء في معنى الأبدان والمعاني في معنى الأرواح، اللفظ للمعنى بدن والمعنى للفظ روح" (الجاحظ، 1964، صفحة 262) يشيرُ إلى أن المعنى عنده مقدم على اللفظ لأنه الروح والجوهر، وهذا يدل على ترابطهما في نظريته البلاغية وتمسكه بهما جميعا. والمقصود من هذا هو تبرئة الجاحظ من تهمة التقيد بالشكل أو اللفظ، فإن المتوقع أن يبدو ذلك ولو قليلا فهو في مبحث خطابي أكثر من كونه مبحثا فنّيا، ولأنه منسجم مع بعض مسائله الكبرى في تفسير الإعجاز بالنظم. (حمادي، 1981، صفحة 274)

5.2 في البنية العامة:

اهتم الجاحظ بمسألة اللفظ والمعنى من جهة أنّها لبنة في بناء أكبر هو التأليف، وحتى اهتمامه بخصائص اللفظ المفرد كان نوعا من ذلك، وبما أنّ الجاحظ ذا بلاغة خطابية جمالية كان لابد أن تحمله الرؤية الشاملة والنصوص المختارة إلى الاهتمام بالبنية العامة خطابيا، وتعقُّب مظاهر الجمال فنيا، من زاوية تلتحم فيها وحدات النص التحاما كاملا يغدو بموجبه الفصل بين خصائص اللفظ وخصائص البنية العامة ضرورة قاهرة، ونجده يجمع في نفس الجزء مستلزمات اللفظ ومستلزمات البنية، بحيث يصعب على الدارس أن يرتبها ويربط بينها، بل إن اللفظ عنده بإجماع الدراسات هو الشكل والأسلوب عامة، زيادة على كونه الكلمة مفردة وفي هذا الاشتراك الدلالي مؤشر على ترابط الجزء والكل في تصوره، وتكامل مقاييس الاختيار مع خصائص التوزيع. ومن ذلك استعماله لمصطلح (الاقتران) فمرة يستعمله في تأليف الأصوات داخل الكلمة ومرة في تأليف الكلمات داخل النص (حمادي، 1981، الصفحات 288–289) ثم إن طريقة حكم الجاحظ على التأليف هي سَوق الشاهد دون تعليل يُظهر موطن الحسن أو القبح تاركا الأمر لذوق القارئ وربما كان الشاهد نفسه مجرد بيت مصنوع، ومال الجاحظ إلى الإيقاع كمظهر من مظاهر جمال النص الأدبي ومن ذلك دفاعه عن السجع والازدواج باعتبارهما يوظفان الطاقة الصوتية في اللغة ويضفيان تنغيما يجعل الحفظ أسرع والآذان لسماعه أنشط. أما مصطلح النظم فقد ذكره مقترنا بالقرآن في عدة مواضع، والسياق الوحيد الذي فصل فيه عنه قليلا كان بمناسبة التعريف بمؤلفه الضائع (نظم القرآن) وكانت مجرد إشارات لا تمكن الباحث من صورة واضحة فلم تكن قضية النظم عنده سوى إعلان مبدئي دون تفصيل كاف. (حمادي، 1981، الصفحات 289–295)

3.المبحث الثاني: بلاغة الجاحظ عند العمري.

1.3 مفهوم البيان عند الجاحظ:

الجاحظ هو أبو البلاغة العربية مطلقا، وأهم كتاب له في ذلك (البيان والتبين) الذي ألفهُ ردا على الشعوبيين وانتصارًا للثقافة العربية عموما، ثم انتصارا للبلاغة العربية خصوصا، حيث حشد فيه عيون النصوص العربية وأبلغها شعرا ونثرا "فهو اختيارات أدبيّة تحاول أن تتخذ صفة كتاب في البلاغة إلا أنها جِدُّ فتيَّة وغير منضبطة" (أمجد، 1993، صفحة 59) وقد ظهر في هذا الكتابِ نُضجُ الفنون البلاغية في ذهن الجاحظ دون أن يضع لها أسماءً قارة لمستوياتها وتفصيلاتٍ مثل تفصيلات المتأخرين، وجاءت مادة الكتاب تبدو مزيجا بلاغيا نقديا مبعثَرا على أبوابه، وكانت أبرز قضية نقدية فيه هي قضية اللفظ والمعنى التي تطورت مع البلاغيين بعده ورافقتها قضايا مهمة أخرى مثل السرقات، الطبع والصنعة، الحداثة والقدم، وهي القضايا التي دارت حولها المعارك النقدية فيما بعد، "مما يطرح التساؤل حول حقيقة مشروع هذا الكتاب خاصة حينما نقف أمام هذه المادة البلاغية والنقدية الضخمة وقد نستبق الأحداث فننسبُ هذا الاضطراب عند كثير من الدارسين إلى الانطلاق من مفهوم مختزَل للبيان العربي، رُبِطَ أساسا بالشّعر وبمفهوم التحسين، وفُصل عن مفهوم الإقناع والمعرفة" (محمد، 1999، صفحة 190) أي أن البيان صار منحصرا في الصور البيانية المعروفة مثل التشبيه والاستعارة والكناية دون وصوله إلى الإفهام وتوصيل المعنى، وللجاحظ نصوص ترسم مشروع الكتاب بوضوح منها:

"البيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى وهتك الحجاب عن الضمير حتى يفضي السامع إلى حقيقته" (الجاحظ، 1998، صفحة 76)

"والدلالة الظاهرة على المعنى الخفي هو البيان" (الجاحظ، 1998، صفحة 75)

"ومدار الأمر والغاية التي يجري إليها القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام" (الجاحظ، البيان والتبيين، 1998، صفحة 76)

ونجد من هذه النصوص أن البيان عند الجاحظ مفهوم إجرائي وأنه العملية الموصلة إلى الفهم والإفهام، وبعد تأمل الأصناف الدّالة على المعاني – لفظية وغير لفظية – نقتنع أنّ الكتاب قد اتجه إلى وضع نظرية لمعرفة الكون والإنسان وتداول هذه المعرفة بالأدلة المختلفة. (محمد، 1999، صفحة 191) ويمكن حصر مادة الكتاب في أقسام واضحة تفتح الطريق أمام تلمس المشروع البلاغي الجاحظي.

2.3 المشروع البلاغي في كتاب البيان والتبيين.

ويظهر هذا المشروع بعد حصر مادة الكتاب في الأقسام الآتية:

- طبيعة البيان من خلال تعريفه (الفهم والإفهام والتأثير) وقيمة البيان بتناول مسائل العِيِّ، والدفاع عن الخطابة والوسائل الإشارية.
- طرفا العملية البيانية أو الخطابية وهما: المقام الخطابي (أحوال المخاطبين) وأنواع الأدلة على المعاني التي هي: اللفظ (اللغة)، الإشارة، النّصبة (الحال)، الخط (الكتابة)، العقد (بيان بعدّ الأصابع).
- البيان العربي قيمته وتاريخه: الدفاع عن البيان العربي في الرد على قدح الشعوبيين وتُهم المتزمتين والتأريخ للبيان العربي بأخبار الخطباء والمتن الخطابي وثقافة الخطيب وتوفير المعاني والحجج. (محمد، 1999، صفحة 193)

مما سبق نجد أنّ (البيان والتبيين) كتابٌ بلاغيٌّ عامٌّ إلا أنّه يركز على أحد شقي البلاغة أكثر، وهو الشق الخطابي الذي هدفه الإقناع، – أي بلاغة الفهم والإفهام حسب المقامات – ويدعم ذلك قولُ الجاحظ "فبأيّ شيءٍ بلغْتَ الإفهامَ وأوضحتَ عن المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضع" (الجاحظ، 1998، صفحة 76).

3.3 وظائف البيان عند الجاحظ.

ويتعلق البيان عند الجاحظ بوظيفتين هما:

- **الوظيفة الإفهامية (البعد اللغويّ):** وتدور حول نقل المعنى الخفي إلى ذهن المتلقي سواء عن طريق الدوال اللفظية أو الدّوال السيميائية الكليّة، غير أن هذا الإطار السميائي العام لم يكن موضوع (البيان والتبيين) وإن نازعَ موضوعَه بسبب عدم التمييز الصريح للجاحظ بين الإطار المعرفي العام والموضوع الإقناعي الخاص، وفي المستوى السميائي يلامس الجاحظ المفهوم الذي سيُلحُّ عليه ابن وهب في كتابه البرهان في وجوه البيان. (محمد، 1999، صفحة 194)
- **الوظيفة الإقناعية (البعد البلاغي):** وتُبرزها نصوص تشير إلى الخطاب الإقناعي تتوفر فيها مؤهلات الإقناع ثمّ موضوع الإقناع ثمّ الغرض التأثيري للإقناع، (محمد، 1999، صفحة 196) مثل "ولمّا علمَ واصل بن عطاء أنّه أثلغٌ فاحش اللَّثَغ، وأنّ مخرج ذلك منه شنيع، وأنّه إذا كان داعيةَ مقالةٍ، ورئيس نِحلة وأنّه يريد الاحتجاج على أرباب النّحل والمِلل، وأنّه لا بد من مقارعة الأبطال، ومن الخطب الطوال وأنّ البيان يحتاج إلى تمييز وسياسة .. وأنّ ذلك من أكثر ما تستمال به القلوب وتثنى به الأعناق وتزين به المعاني، وعلم واصل أنّه ليس معه ما ينوب عن البيان التّام .. رام أبو حذيفة إسقاط الرّاء". (الجاحظ، 1998، الصفحات 14–15) فالمؤهلات هي: المنطق ودفع العيّ، والموضوع هو: الإبلاغ والدعوة إلى المقالة، والغرض التأثيري هو: استمالة القلوب. (محمد، 1999، الصفحات 197–198)

4.3 حدود المشروع البلاغي عند الجاحظ

الملاحظ أن الجاحظ كان ينتقل في توضيح موضوع الكتاب من البيان بمعنى الإفهام إلى البيان بمعنى الإقناع، وذلك بتغيير المصطلحات دون شرح هذا الانتقال وتوضيحِ هذا الانفصال "فلم يكد الجاحظ ينتهي من تعريف البيان باعتباره فهما وإفهاما بالوسائل اللغوية وغير اللغوية حتى قايض كلمة بيان بكلمة "بلاغة" ومع بداية تحكيم المقام في الكلام استبدل الجاحظ كلمة بلاغة بكلمة "خطابة" حتى صُرفت البلاغة إلى المعرفة بالخطابة. (محمد، 1999، صفحة 200)

بعد ذلك ألف ابن وهب كتابه (البرهان في وجوه البيان) منطلقا فيه من بيان الجاحظ مخالفا ومُتَمِّمًا له، حيث اعتبر أن الجاحظ لم يتكلم عن أكثر وجوه البيان حينما ركّز أكثر على الدوال اللفظية التي تتوافق مع الوظيفة الخطابية من مجموع الدوال التي عيّنها، (اللفظ، الإشارة، العقد، الخطّ، النِصبة) لهذا أشبع ابن وهب موضوع البيان بكلامه في دوال الوظائف الثلاث، الإفهاميّة والخطابيّة والحجاجيّة، وركّز على الأولى والثالثة، وكان عمله أقرب إلى نظرية معرفية في حين كان عمل الجاحظ ضمن بلاغة الخطابة. (محمد، 1999، الصفحات 211–213)

والمختصر من ذلك هو أنّ الجاحظ لم يركز على بلاغةِ الشِّعرية والإمتاع رغم أنه تكلم في كتابه الحيوان عن الشعر، فقال بأنه "ضرب من النسج، وجنس من التصوير" (الجاحظ، 1965، صفحة 132) أي أنَّ بلاغة الجاحظ كانت بلاغة خطابية بامتياز، غير أنّ مشكلتها الكبرى في كونها لم تتطور كمشروع، ولم يُلتفت إلى نسقها إلا في إطار نظرية المعرفة، مثل قراءة ابن وهب في كتابه (البرهان في وجوه البيان).

5.3 قراءة العمري للمشروع البلاغي الجاحظي:

وفي سياق ذكر المفارقة بين المشروع البياني والمنجز البلاغي عند الجاحظ، نسجل التباسا عند العمري حول قضية ما سبق إلى ذهن الجاحظ قبل إنتاجه لعلم الخطابة، هل هو المقام والتفكير التداولي، أم هو البيان والتفكير السيميائي؟ هل فكّر في المقام ثم أطّره بمفهوم البيان أم أنه انطلق من البيان العامّ، وضاق به حتى لم يبق منه إلا البيان باللغة فاحتكم فيه إلى المقام؟ (محمد، 2013، صفحة 128) وفي تقديرينا فإن الجواب صعب وأنّ لكلا القولين ما يقويه، فمن جهة نجد أنّ الخلفية الدينية التي تأمر بالتفكر والتأمل واستنطاق الآيات الكونية تدعم المنطلق السيميائي، لأن القرآن – وخطاب الوحي عموما – يحث كثيرا على النظر في الكون وقراءة علاماته والاعتبار بها، ومن جهة أخرى نجد السياق الجدلي لأهل الكلام ومعه ازدهار الخطبة السياسية في العصر الأموي يدعمان المنطلق التداولي، والمرجَّح أنه لا يمكن معرفة السابق من اللاحق قبل معرفة ما كان أكثر تأثيرا على تفكير الجاحظ قبيل التدوين. غير أن الأهم من ذلك هو رصد العمري لتحول مشروع الجاحظ، من البيان ودراسة

أنواع الدلالات على المعاني، إلى مقايضة البيان بالبلاغة، إلى الاقتصار على الخطابة والتنظير للخطاب الإقناعي، وذلك تحت ضغط الخطبة كمطلب مهم في العصر الأموي.

4. خلاصة:

- الجاحظ يستعمل مصطلح البيان بمعنى الدلالة العامة التي تجمع كل العلامات، لكنه اقتصر على تحليل العلامات اللغوية، ومهّد بالسيمياء للبلاغة، ثم كاد يقتصر على الخطابة من البلاغة، لولا ما انصهر فيه التنظير الخطابي من مظهرٍ شعري جمالي.
- الجاحظ درس الخطاب من جهتين: الوظيفة التواصلية (الفهم والإفهام) بصفة أساسية، والوظيفة البلاغية (الشعرية والخطابية) بصفة ثانوية، وواضح أن الأولى أصل للثانية بفرعيها.
- تقاسمَ جُهدَ الجاحظ ظاهرتا الملفوظ والتلفظ، والملفوظ هو هيئة النص اللغوية المجردة عما تفرضه ملابسات إنجازه، وهي حالة نادرة جدا، أما التلفظ فيزيد على الملفوظ بعناصر أجنبية مثل المتكلم والسامع والسياق، وقد ناقش الجاحظ كلا منها بمقدار.
- انتهج حمادي صمود في مقاربة بلاغة الفهم والإفهام عند الجاحظ المعالجةَ اللسانية البنوية من جهة، واعتمد على التحليل الجزئي واستنباط الأحكام الخاصة من جهة أخرى، لاسيما في دراسته قضية اللفظ والكشف عن مراتبه عند الجاحظ، وبيّن كيف أنها تتراوح من الصوت الواحد، إلى انتظام الأصوات في المفردة، إلى انتظام المفردات في التركيب.
- جاءت مقاربة العمري لبلاغة الجاحظ – من منهجها إلى نتائجها – إثمارا لما زرعه حمادي صمود في إبراز النسق البلاغي الجاحظي، كما نصادف أيضا استثمار العمري لبعضٍ من مُقترحاتِ جماليةِ التلقي في بعدها التاريخي، بمعنى أن عُدّةَ الباحث في قراءة الجاحظ والبلاغة العربية عموما هي الجمع بين البنوية والتلقي.
- وقف العمريّ أمام البعد الإقناعي للبلاغة العربية وقال إن هذا البعد كان حاضرا عند الجاحظ على وجه الخصوص، مخالفا حمادي صمود الذي لا يثبت لبلاغة الجاحظ –وإن كان يستعمل لفظ الخطابة– سوى الوظيفة الإبلاغية دون التنظير لبلاغة الإقناع، أي أن دور البلاغة الجاحظية –بفهم صمود– يتوقف عند الإفهام دون الحجاج.
- ذهب حمادي صمود إلى أن القرآن والحدث الجاحظي هما من وجّها البلاغة العربية إلى البلاغة الإفهامية ذات المظهر الأدبي بالمعنى الغربي، لكن البلاغة الغربية تبتعد في أدبيتها التي صاغها الشكلانيون عن

بلاغة الجاحظ، وتقترب منها أكثر في جانب الحجاج والبلاغة الجديدة التي صاغها بيرلمان، وربما لو دققنا لوجدنا اشتراكا لبيرلمان مع الجاحظ في التأثر بالنموذج الأرسطي في الخطابة.

- وضّح حمادي صمود جيّدًا انتقال البيان عند الجاحظ من علم العلامات المطلقة، إلى علم العلامات اللفظية وبلاغة التعبير بها، وشرح كيفية انحصار البيان واختزاله، لكن العمري دقّق في هذا وبين أن مشروع الجاحظ لم يكن مشروعا في البيان المعرفي أكثر من البيان التعبيري التواصلي، مستدلا على ذلك بالمقارنة بين مقدمتي البيان للجاحظ والبرهان لابن وهب "ففي الوقت الذي قدم الجاحظ كتابه بالحديث عن اللسان (الذي بين الأسنان)، أي عن القدرة التعبيرية وما ينتابها من عوائق وعيوب تؤدي إلى العيّ، نجد ابن وهب يخصص أكثر مقدمة بيانه وجوهرها للحديث عن العقل منوها به مبينا الغريزي منه والمكتسب" (محمد، 2013، صفحة 132)
- ركز حمادي صمود على استجلاء النظريات التي تتبَطَّنُها البلاغة العربية وما تحتويه من نظرات في أدبية وطريقة استعمال اللغة في التعبير، وحكّم الدرس اللساني الحديث في التراث، ورغم أن مثل هذا التحكيم ليس عادلا دائما بسبب اختلاف المنطلقات الحضارية ودوافع الدرس اللساني عموما، إلا أنه كان تحكيما مثمرا، فقد ثَبت به احتواءُ التراث لبعض ما يتوافق مع النظريات الحديثة.

5. الخاتمة:

إن بلاغة الجاحظ تمثل مرحلة تأسيسية في تاريخ البلاغة العربية، ومشروعه لم يكن مقصورا على البحث في المحسنات أو الصور البيانية، وإنما انبنى على تصور واسع للبيان باعتباره وسيلة لتحقيق الفهم والإفهام، ثم اتجه تدريجيا إلى بيان خصائص الخطاب المؤثر وآليات الإقناع، وقد ظهر أن حمادي صمود نجح في الكشف عن البنية الداخلية للنظرية البلاغية عند الجاحظ، وربطها بالدرس اللساني الحديث، في حين أبرز العمري البعد التداولي والحجاجي للمشروع الجاحظي، وأوضح انتقاله من البيان العام إلى الخطابة بوصفها المجال الأبرز لتجليات البلاغة.

وأثبتت المقارنة بين القراءتين أن اختلافهما لا يرجع إلى تعارض في فهم نصوص الجاحظ بقدر ما يعود إلى اختلاف المنطلقات المنهجية وأدوات التحليل، فقد غلب على قراءة حمادي صمود المنظور البنيوي واللساني، بينما اتجه العمري إلى توظيف المقاربة التداولية والحجاجية في إعادة بناء النسق البلاغي للجاحظ. وهو ما يؤكد ثراء التراث البلاغي العربي وقابليته لتعدد القراءات، ويدعو إلى مزيد من الدراسات التي تعيد استثمار هذا التراث في ضوء المناهج اللسانية والبلاغية المعاصرة.

6. قائمة المراجع:

1. الجاحظ. (1998). البيان والتبيين (المجلد 7). القاهرة، مصر: مكتبة الخانجي.
2. الجاحظ. (1965). الحيوان (المجلد ط2). دم، القاهرة، مصر: مطبعة الحلبي.
3. الجاحظ. (1964). رسائل الجاحظ (المجلد دط). القاهرة، مصر: مكتبة الخانجي.
4. الطرابلسي أمجد. (1993). نقد الشعر عند العرب حتى القرن الخامس. الدار البيضاء، المغرب: دار تقبال.
5. العمري محمد. (2013). أسئلة في النظرية والتاريخ والقراءة. الدار البيضاء: إفريقيا الشرق.
6. العمري محمد. (1999). البلاغة العربية أصولها وامتداداتها. بيروت، لبنان: إفريقيا الشرق.
7. صمود حمادي. (1981). التفكير البلاغي عند العرب، أسسه وتطوره إلى القرن السادس (مشروع قراءة) (المجلد دط). تونس، تونس: منشورات الجامعة التونسية.